٤٠ فِي مَعْنَى أَنْ أَكْبُرْ

ليلى الجهني





40

... فِي مَعَنَى أَنْ أَكْبر

ليلـــى الجهـني



دار أثر للنشر والتوزيع 1436
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
الجهني، ليلى
40 فِي مَعنَى أنْ أَكْبُر/ ليلى الجهني - الظهران 1436

64 صفحة 14.5 ×21.5 سم
ردمك: 978-603-90625-3-0
1 - النثر العربي - السعودية أ. العنوان
ديوي 819,9531 رقم الايداع 1435/3745
الطبعة الأولى 1436/ 2015



المملكة العربية السعودية- الدمام
تلفون : 00966505774560
الموقع الالكتروني : www.darathar.net
Email: info@darathar.net

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾

[الأحقاف: 15]

(1)

إننــي أكبر، ومـع ذلك فإنَّ كتابتي هذه ليســت عدّاً لأعوامي ولا إحصـاءً لها. لقد أدركــتُ - غيرَ متأخرةٍ على ما يبدو - أن قيمة وقتي فيما عرفتُه وأعرفه وسـأعرفه عني وعن العالم من حولي، وأنَّ انشــغالي بإحصاء السنين سـيحرمني فرصة أن أعرف جديداً، وكلُّ مـا أحياه الآن هو: نَهَـمُ أن أعرف. لم أعد أريد شــيئاً غير أن أعرف أكثر، كي أعيَ مبلغَ جهلي الفـادح، فأحزنَ أكثر مما حزنتُ. إن الذي يعـرف ينـأى كثيراً عن صخب السـطح وضجيجه، يغـور وحيداً، وقـد يفـزع، وقد يتوحش، وقد يألم؛ بل إنه سـيألم؛ لكنه أبداً لا ولن يـؤذي. أجـل، من يعرف لا يـؤذي، لأن الإيذاء خســارة في الروح والوقــت، ولأن الإيذاء ضعف، ولأن الإيذاء هزيمة متأخرة؛ ومن يعرف لا يحب أن يخسر، ولا أن يُهــزَم. إن الذي يعرف كذلك قادر

علـى اصطناع بهجته الخاصة فوق رملٍ يرتعب من الحياة حين تتوق إلى التعبـير عن نفسـها. قـادر على أن يعذر، وأن يمـضي إلى الأمام، فإن التفتَ فإنه سـيلتفتُ لأن الحنـين ينمو مع الوقت، ولأن التفاتةً إلى الـوراء لا تعنـي - حينئذٍ- أكثر من سـلامِ العابـرِ للعابر؛ وجُلُّ الحيـاة - حينما أتأملها - عابرٌ يُحَيّي عابراً؛ وأنا لا أريد أن أعبر دون أن أعرفَ كل ما يمكنني أن أعـرفه.

(2)

إنني أكبر. ما كتبتُه في العشرين لا يشبه ما أكتبه الآن، وما أفهمه الآن من: شرق المتوسط، ليس ما فهمتُه منها عندما قرأتُها أول مرَّة، قبل أعوامٍ طويلةٍ خَلَتْ، كما أن ردَّ فعلي إزاءها يختلف. ما أريده لم يعد خفيفاً ومقبولاً، بل أثقل على الخلق من أن يُحتَمل أو يُغتَفر: أن أُترَكَ لصمتي ووحدتي في معظم الأوقات. أحلامي صارتْ ثقيلةً وغريبةً ومليئةً بالتفاصيل والألوان والحرارة والحروب والملامس المتباينة، وبعضها يشبه لوحاتٍ فنيةٍ ضخمةٍ. عيناي غائرتانِ لطولِ ما قرأتُ وأوجعتْني المعرفة. نَفَسِي أبطأ وأبرد مثل نَفَس حيوانٍ بريٍ في سباته الشتوي! يدخر طاقته لأيامٍ سيحتاج فيها لكل ما لديه. صرتُ أقل حزناً وقلقاً، وأكثر سكينةً، ربما لأنني نجوتُ - كما أظن - من خديعة الأمل. وجهي صار

أجمـل مما كان عليه قبل أعوام! عَلَته تلـك الهالة الغامضة التي تعلو الأشـياء عنـد بلوغها نقطة تمامهـا، أو اقترابها منهـا. صرتُ خارجَ أشـياء كثيرة ظننـتُ أني لن أصيرَ مرةً خارجهـا، أولها: الانتظار. ما عـدتُ أنتظر، وقد ربحتُ بهذا نفـسي ووقتي وطاقةً بددتُها من قبل على أمور وأناس لا تستحق.

(3)

إننـي أكبر، وأبلغ أربعيني دون طفل، ومع ذلك فإن اسـمي لن ينمحي كما تظنُّ نسوةٌ كُثرٌ حولي، وحياتي لن تفضي إلى خواء. ما أنجبتـه عصيٌ على الموت، وكلُّ ما أعرفه عن الحياة جعلني أدرك أن الخلـودَ حِليَـةُ من يعي لا من يتكاثر. وفوق هـذا فإن حياتي ملأى، أجـل مـلأى حتى لو ظنَّتْ نسـوةٌ - أو أردن أن يعزين أنفسـهن - بأنها غير ذلك. كنتُ قد انشغلتُ فترة بأن أبرر لهن ولغيرهن سبب عزوفي عن الإنجاب، ثم أدركتُ أني كمن يسـبحُ في ماءٍ باردٍ: أبذل مجهـوداً جباراً كي أبلـغ ضفةً غيرَ أكـيدةٍ، وأن هؤلاء النسـوة ومن يفكـر بطريقتهن لا يعين أنفسـهن كما أعي نفـسي، ولا يرين العالم من زاويتي، فقررتُ أن أبتسـم فحسب، وأن أحاول أن أفهم كيف

تعي النسوة أن الإنجاب شيء جادٌّ، ثم يتعاملن معه بخفةٍ؟ وأن أفهم ما المغري في عناء الأمومة؟ وأن أفهم كيف تظن امرأة أن كلَّ الأبناء عملٌ صالحٌ، يمكن أن تدخره لأيامها الأخيرة فتردد بيقين فادح: «جيبي لك سند يشيلك لَمَّا تكبري»؟ أنا لم أعرف كيف أجعلهن يدركن أني مفزوعة من مصيري، وأني أشعر أن الحياة - بالنسبة لي ورطةٌ - لا ينبغي أن أُوقعَ مخلوقاً فيها إلا إنْ رَغِب. ومادمت لا أملك أن أسأل جنيناً - قبل تخلّقه في رحمي، وقبل أن يعي - إن كان يرغب في أن يولد أم لا؛ فليس في وسعي إذن أن أورطه وأتورط معه. وليس في وسعي الآن، ولا غداً ولا في أي وقتٍ أن ألج فردوس الأمومة الهش. بلى، الأمومة فردوسٌ هشٌّ لأن عقوق ابن قد يجعله ندماً، ومرض ابن قد يُصَّيره عذاباً، وموت ابن سَيُحيلُه إلى جحيم؛ ثُمَّ هناك السهر، والقلق، واستنزاف الروح والجسد، والخوف من الإفراط أو التفريط، والقرارات التي ستطلع في منتصف طريقٍ ما، وسيكون لزاماً اتخاذها، وهناك كذلك الفكرة التي تمضُّني عندما تمرُّ ببالي - ربما بدافعٍ من أنانيتي - فكرة: أن حياتي مع طفلٍ لن تغدو لي، ولن تبقى - على أهون حالٍ - ما كانته

قبل مجيئه، وأني سأغدو مكرَّسة من أجل العناية والحماية والرعاية، وسأصبح أقل شجاعة وأكثر تحفظاً، وسأحنقُ في مراتٍ وأنا أهجس بأن حياتي لم تعد لي، وقد أغدو مع طول الحنق أماً سيئة، وهذا ما لن أغفره لنفسي. ولأني أظن دائماً أنَّ الناس لن تفهم هذه الأفكار، فقد كففتُ منذ وقتٍ عن أن أبررها وأبرر نفسي لأحد. ما عاد يعنيني أن يفهم أحدٌ اختلافي أو حتى يتقبله، ليس يأساً بل لأني أدركتُ أن الفهم الذي أنشده عصيٌّ، على الأقل الآن، وفي هذه اللحظة. ومادام عصياً، فليس من الجيد أن استنزف طاقاتي في استجلابه، لأن معظم الناس لا تفهم إلا ما تعرف، ويربكها الاختلاف.

(4)

إننـي أكبر، وتكبر معي أشـياء كثيرة أولهـا: الألم. كلما كبرتُ صـار الألم أكـبر، وأبطأ رحيـلاً! ظننتُ مـراتٍ أني موعـودة بالألم، وحاولـت أن أفهـم لِمَ كان عليَّ أن أكبر في ظلِّـه، لكنني أدركتُ فيما بعد أن الألم شرطٌ إنسانيٌّ، وأنَّ ما من إنسانٍ إلا وهو مخلوق في كَبَدٍ، وسـينال حظه من الألم كَبُرَ - ذلك النصيب - أم صَغُر؛ وأن حظي - يا للأسى - سيكون دائماً كبيراً؛ لأن قدر الواعي أن يألم مرتين: مرة لأنه يعي، والأخرى لأنه وحيد! وأغرب ما أدركتُه أنني - رغم ألمي - فإني لا أرغب في أن اسـتبدل حياةً أخرى بحياتي. ما الفائدة من أن أحيا مرتين عذاباً لم أفهمه كما أودُّ في المرة الأولى؟ ما فائدة أن أحيـا حياة أخرى بكل تكاليفهـا المبهظة؛ ذلك لأن أي حياة أخرى سـتكون حياة بكل تبعاتها وألمهـا وخيباتها وفرحها العابر وأسـاها

وهشاشـتها؟ ما من حيـاة هينة، وما من حياة بسـيطة أو تافهة، كل حيـاة معقـدة بطريقتهـا الخاصـة. أجل، أنـا لا أرغب في اسـتبدال حيـاتي؛ لكنني أرغب في أن أحيا تجارب بعينها فحسـب. ربما لأنها ستثري حيـاتي، سـتضيف لها معنـىً يغيـب عنها الآن، سـتجعلها أعمـق مما هي عليـه الآن، لكنها أبـداً لن تحمل تغيـيراً جذرياً لكل هذه الأعوام الطويلة التي أسحبها ورائي، والتي اسمها: حياتي.

(5)

إننـي أكـبر، وأوشـك عـلى بلـوغ الأربعـين، وسـيكون هذا الكتاب - إن صدر - كتابي الثالث. كان كتابي الأول قد صدر وأنا في السابعة والعشرين، وقد سبقته عناقيد الغـضب. أمَّا كتابي الثاني فقد صدر وأنا في السابعة والثلاثين وقد سبقته أمطار الصيف. ربما ستسـبق حربٌ ما كتابي هذا؛ لأنني - كما أدركتُ منذ وقتٍ - أكبر في ظـلِّ الحـروب، وقد وَسَـمَ الخراب كلَ عشرةِ أعـوامٍ من عمري بطريقـة لا يمكننـي إغماض عينـيَّ عنها. عـاصرتُ ثلاث حروب غيّرتِ العالم من حولي ودارت كلها قريباً مني، على ضفاف الخليج: الأولى بـين العراق وإيران، والثانية عقب اجتياح العراق للكويت، والثالثة عندما اجتاحت أمريكا العراق. في الأولى كنت طفلة، أذكر

أكثر ما أذكره مذيع نشرة الأخبار وهو يعلن أن التلفزيون السعودي سيكفُّ عن نقل تفاصيل الحرب الدائرة بين الشقيقتين المسلمتين. في الثانية كنت شابة تبكي ليلة السابع عشر من يناير عام (1991) دون أن تفهم ما الذي يحدث؟ ولِمَ يحدث الآن؟ في الأخيرة كنت امرأة على الأعراف، وحيدة وأسيانة، تظن أن رحمة الله قد هجّت بعيداً، ولا تدري كيف ستَمضي بقيةُ عمرها، لكنها تود لو تمضي بأقل الخسائر. الخسائر التي تنحت الروحَ مثل قطرات ماء مالح، تتوالى لأعوامٍ على صخرةٍ صغيرةٍ، فتنحتُها لا كما ينبغي، بل كما يحدث.

(6)

إنني أكبر، وسأؤول إلى موتٍ بطيءٍ، سأتحلل رويداً رويداً، إن واظبتُ على العيش أكثر. كان واحداً من آمالي الكبرى أن أموت في الثلاثـين، أردتُ وأريـد دائماً أن أموت تامة، لا أريـد أن أحيا حتى أرذل العمـر، ولا أن أذوي شـيئاً فشـيئاً، ترعبنـي تكاليـف الكِبَر. الآن، وقد فاتني أن أموت في الثلاثين، فإن الأربعين تبدو تماماً مثلما قالت أروندهاتي روي: [ليست سناً متقدمة، وليست سناً صغيرة، لكنها سـنٌّ صالحـة للحياة، وصالحـة للموت]. إننـي أكبر، وأفكر أحياناً – عندما أحزن – في أيامي الغابرات؛ يا لأيامي الغابرات، يا لبسمة أبي التي لم تعد ما كانته منذ أعوام، فيها من الأسى ما يقتلني في كل مـرَّة أراهـا فيها أكثر من قبل. يا لصداقات تحللت تحت رمل

الأعوام التي عبرت، وتلك التي ستعبر عليَّ أو دوني. يا لكتبي التي تتراكم؛ فيغدو خرابي الجميل معها واااااااااسعاً وغير قابل للشفاء.

يـا لوجـه محمود درويش في صوره الأخيرة، شـائخاً إلى الحدِّ الذي تدمع معه عيناي وأنا أفكر في وقع الزمن الثقيل على جسـدي، وفي أن وجهي بعد أعوام سيشـيخ كوجه درويش، إن لم أمت الآن، وفي أني سأفكر حينها في كل خيباتي وهواجسي وما قلته وما لم أقله، وما فعلتـه ومـا لم أفعلـه، فلا أتعزى عـن شيءٍ أو أحـدٍ، لأنّ ما خسرتُه سيكون دائماً أكثر!

(7)

إننــي أكــبر، وأميــل إلى الصمت أكثــر من ذي قبــل. صارت تمرضنــي فكــرة الــكلام كلهــا. لم يكن الــكلام ســلواي في يوم من الأيــام؛ وقــد عرفتُ مبكــرةً أن بإمــكاني أن أحيا أيامــاً طويلةً دون أن أقول شــيئاً، ودون أن أشــعر بأن شــيئاً ما ينقصني. إنَّ الصمت نعمةٌ هائلةٌ مســلوبةٌ مــنَّا. أحياناً عندما أستيقظ من النوم، ثُمَّ أطفئ المكـــيف، أغمض عيني، وأستسلم لصمت غرفتي، وأشعر كما لو كنــتُ لم أَعِ بعد. أشــعر كما لو كنتُ أســبح في محيطٍ مــن عَماءٍ أبديٍ، حيــث لا شيء يرفُّ حولي غير الماء، ومن فوقه العرش. أفكر في أننا نولد من صمتٍ، ونؤول إلى صمتٍ، لكننا لا نفهم إلا متأخرين أن ضجيجنــا وصخبنا ليس أكثر من رفةِ جناحِ فراشــةٍ عــابرةٍ. وأنا ما

عـادت تغريني رفـة الجناح، ما عدتُ أريد غـير الصَّمت. الصَّمت الـذي ربضتْ في كنفه الخليقةُ دهوراً قبـل أن يخلق الله آدم وحواء، الصَّمـت الذي تسـبح فيه - دون قلـقٍ - كلُّ الأرواحِ التي انعتقتْ من قيد أجسادها، فغَدَتْ خفيفةً لينةً غيرَ عابئةٍ بأن تُرى، أو تُجرَح، أو تمـرض، أو تُعـذَّبَ، أو تحـترق، أو تُهان. تمضي حـرةً موقنةً بأنها لم تعـد قابلـةً لأن تُمَسَّ، ولم يعـد ثَمَّ ما يجعلها عرضة للألم، تلاشـى الجسدُ، وانطلقتْ هي إلى صمتها القديم، إلى جنةٍ غادرتها وتعذبت طويلاً قبل أن تعود إليها.

(8)

إنني أكبر، ويكبر العالم معي، وأكذب لو قلتُ إنني قادرة على أن أفهمه بصورة أفضل مما كنتُ في العشرين مثلاً. بل إن أغرب ما أفكـر فيـه الآن، أني كنتُ أفهم العـالم حينها أفضـل! كان عالماً أقل تعقيـداً وضياعاً مما هو عليـه الآن! وكان يمكن للمرء - إن أراد - أن يتخـذ جانبـاً ضد جانب، أو على الأقل هـذا ما أظنه. العالم الآن يتهتك أكثر مـن ذي قبل! يصبح عالماً خليعاً، وينحدر نحو رُخْصٍ بَـيِّن. عالم يمكـن للمرء فيه أن يعـرفَ كثيراً عن أي حـدثٍ حوله، ومـع ذلك فإنه قد يجد نفسـه حائراً في نهاية المطاف ومتشـظياً؛ لأنَّ كل مـا يُطـرَح يبدو صحيحاً. لم تعـدِ المعلومة شـحيحةً، بل فائضة إلى حـدٍّ يثـير البلبلة. عـالمٌ مزرٍي هو عالمـي. عالمٌ غـيرُ آمنٍ، وغيرُ

مفهـومٍ فيـه لِمَ يبـدأ أمرٌ ولِمَ قد يسـتمر أو ينتهـي! ولِمَ يصبغه العنف المبتذل الذي لا مبرر يسوغه؟ العنف الذي يملأ البيوت والشوارع والمدارس والملاعب؟ العنف الذي له شـكل كلمة، أو سـكين، أو مسدس، أو مبيد حشري، أو قيد، أو مقطع بلوتوث، أو مكيدة، أو قنبلة، أو بقعة نفط، أو آلة عسـكرية ضخمة تسـحق بشراً لا حول لهـم ولا قوة؟ مـا قيمة الحيـاة إزاء هذا العنف؟ مـا قيمتها والعنف يضحك باللَّيل والنَّهار، ومن أشـداقه تسيل حيواتٌ كان كل ذنبها أنَّ طُرقها تقاطعت لمرة واحدة وأخيرة مع طريقه؟

(9)

إنني أكبر، وأفكر في أنني أقترب من الموت. لكن الموت لا يقترب لأننا نكبر، ولا يبتعد لأننا صغار. الموت موجود، ونحن لا نذهب إليه، ولا نعود منه. هل نسيتُ خالداً؟ لقد مات قبل أن يَكْبُرَ بكثييير. أحياناً أتخيله وهو يسبح وحيداً في الماء تحت عرش الرحمن؛ فأحزن حزناً غريباً وغير مفهوم. غرق خالد لأنه لم يعرف أن يسبحَ في ماء الدُّنيا؛ فغاصَ حتى انتفخ، وعندما انتشلوه كان قد مات، دون أن يتناول عشاءه - هكذا قالت أمه - ودون أن يُتِمَّ الثامنة بعد. قبل أن يموت بليلتين أو ثلاث حلمتُ أن سناً من أسناني قد سقط، وبعد أن مات صرتُ أفكر في أنه وحيدٌ، وأن وحدته لا بُرْءَ منها؛ لأنَّه دفن في أرضٍ لم يُدفَن فيها أيٌّ من أسلافه،

وقـد غادرهـا أهله بعد موته، وصرتُ أفزع مـن أن أموتَ في مكانٍ
نـاءٍ فأُدفَنَ هناك، ثُمَّ أفتحَ عيني على وحـدتي العصية. ظللتُ لفترةٍ
أتخيله هائماً في برزخه، يبحثُ عن وجهٍ يعرفه أو يألفه على الأقـل.
أمضّتْنـي فكرة أنه لـن يجد من يأخذ بيده، ويجعلـه يفهم ما حلَّ به.
وأمضّتْنـي أكثر فكرة أنه قد يبقى وحيداً تحت تلك الأرض إلى يوم
يبعثون؛ لأن أحداً من أهله لن يدفن هناك.

(10)

إنني أكبر، وأتورط في سحر الكتبِ والقراءة أكثر من ذي قبل. لم تعدِ القراءة - بالنسبة لي - متعة بل غريزة كالجوع تماماً، ومنذ وقتٍ بعيد أدركتُ أنْ لا شيء يمنحني الأمان مثل أن أجد نفسي بين الكتب. دائماً، عندما أدخل أي مكتبة، أشعر بأنها مكان آمن كي أحيا فيه طويلاً، أو حتى أُنسى. لن أخسر أحداً أو شيئاً، ولن يخسرني أحدٌ أو شيء، ولن أكون مضطرة لتمحيص كل الأفكار التي سأقرؤها قبل أن أُسلِّم بها، سأقرؤها على الورق، وستبقى على الورق، ولن أشعر بالخيبة إزاء الوعي أو اليقين أو الخوف من الفشل؛ سيكون كل شيء آمناً كما ينبغي لنعيمٍ أن يكون. يا إلهي، لعل أسوأ ما

في وعيـي أن أعيَ خـرابي، وأن أعيَ رغبتي في أن يكون تاماً لا شِيَّةَ فيه! لكنني لا أستطيع، ولا أرغب، في أن أكون غير ما أنا عليه. هكذا خُلِقتُ، وهذا ما أصلح له: أن أعيَ العالمَ وأتعامل معه من خلال كتاب.

(11)

إننــي أكـبر، وأزداد مرضــاً بخصوصيتــي. لم أعـد أُطيـق أن أُقتحمَ بفجاجة، ولأسبابٍ أشدَّ فجاجةً. أتذكر ما شعرتُ به عندما وصلنــي رابطٌ إلكتروني لصور قصر الأمـيرة ريم بنت الوليد. كان قـد وصلني عـبر الإيميل دون تعليـقٍ أو أيقونةٍ. نقرتُـه فانفتح عن الصور، وكان يمكن أنْ لا يحدث شيء، لكن شـيئاً حدث على نحوٍ غامضٍ حتى بالنسبة لي: كنتُ أتابع الصور، دون أي شعور خاص، وعندما وصلتُ إلى صورة غرفة نومها، شعرتُ بما قد تشعر به امرأة قُدَّت ثيابها من دُبُرٍ بغتة وسط جمعٍ، ولم تتمكن من تدارك انكشافها وعريهـا المخزي أمـام النّاس؛ ووعيتُ - بطريقـة أزعجتني - أنني مريضـة بخصوصيتي، وأنني لو كنتُ مكانهـا لأمرضني أن تُنتَهَك

حميميتـي بهذا القدر، أن يَطَلِّع أنـاسٌ لا أعرفهم، في أمكنة لا أدري عنهـا عـلى لـون لحـافي، وأن يعرفوا شـكل سريـري، وأن يتخيلني أحدهم - رباه - مضطجعة عليه آمنةً، غافلةً عن أن ثَمَّ من يتخيل شـكل اضطجاعتي تلك. شـعرتُ بحزنٍ غامضٍ تجاهها. حزن لن يعنيها، وربـما ضحكتْ إن عرفتْ به وهي تقـول: "مَشِّي حالك". لكنني سـأكون عاجزة عـن أن "أمشي حالي"، ولن أعرف - ربما - كيف أتجاوز الأمر.

(12)

إننـي أكبر، ونومي يضطرب أكثر مـن ذي قبل. منذ العاشرة ونومي مضطرب. حينها كنتُ أرفض فكرة النوم، وأعدُّها خسارة، وكنـتُ أفكر أن ثَمَّ أشـياء سـتفوتني إن نمـت. الآن كذلك أتهرب منها أحياناً، وأعدُّها خسارة أكثر فداحة! لكن جسدي لم يعد شاباً، ومـع الوقت سـينهكه السـهر المتواصـل. عندما أرسـلتُ لصديقةٍ أخبرهـا: "لا أنام!"، ردت عليَّ: "أرقُ إدوارد سـعيد..."، وها قد مضى إدوارد سـعيد إلى نومه الطويل، فهـل عليَّ أن أنتظر أن أموت كـي أنـام بعمق؟ توقظنـي أحلامـي وكوابيسي أحيانـاً، وفي أحيان أخـرى توقظني أفكاري، ويوقظنـي أن أهجس بمصيري ومصائر

أحبتـي، وكم يرعبني أن أفكر بمصائر مـن أحبهـم، في الموت الذي قد يأخذهم، في المرض الذي قد يلحق بهم، في الخيبة التي قد تفتت قلوبهـم، في العجـز الذي قد يقعدهـم. وأعرف أنْ ليـس بيدي أن أمنـع عني وعنهم مـا ينتظرنا، لكن ليس بيـدي أنْ لا أهجس بكل ذلك فلا أنام.

(13)

إننـي أكـبر، وأفكـر في أنني قـد حصلـتُ على أشـياء كثيرة، غـير أن ذلـك لا يعني أنني حصلتُ على كلِّ مـا أردتُه، أو أن كلَّ ما حصلتُ عليه كان مما أردته. ثَمَّ أشياء أردتُها بشدة، غير أنني لم أَنَلْها فحاولت أن أتصبر عنها، وثَمَّ أشياء نِلتُها لأنها جاءت وليست لأنها ما أردتُه، وأحاول دائماً أن أشكر الله عليها؛ وفي مقابل كل ما أردتُه ولم أحصـل عليه، وما حصلـت عليه رغم أننـي لم أرده نمَّيتُ يقيناً لا أريـد أن أحيد عنه بـ: أن الله عادلٌ؛ لكن الحياة غير عادلة. الحياة ليستْ مكاناً للعدل، بل لاختبار حِسِّنَا تجاهه، أو على الأقل هذا ما استخلصته مما مـرَّ بي، وفي هذا الاختبار كنتُ كغـيري من النَّاس:

أصيب في مراتٍ، وأفشـل في أخرى، وأبتهل إلى الله كثيراً أن يكون فشـلي عن جهلٍ لا عن عَنَـتٍ. لقد أدركتُ مبكـرةً أن قيمة ما نناله وما نُحرَم منه ليسـت في الأشياء نفسها، بل في الطريقة التي نتعامل بها مع تلك الأشـياء نعمةً كانت أم ابتلاءً. وإذا كنا نعي دون جدلٍ أن الابتـلاء ثقيـل، فإنّ قلةً يعون أن النعمـة - كالابتلاء - ثقييلة، وأن شكرها أثقل من الصبر على ضدها!

(14)

إنني أكبر، وليس بيدي أنْ لا أفعل. كلُّ ما بيدي وأنا أكبر هو أن أعــيَ كيـف ينحتُني هذا الكِبَر. ما الــذي يأخذه مني؟ وما الذي يُضْفِيه عليَّ؟ وأين سأجد نفسي عندما ينتهي الدَّرب، وترفّ الملائكة بأجنحتهـا من حـولي، ويصير ما أعيه خـارج الكلمات وأكبر منها؟ وكم سـأخسر حينها أنا التي آمنتُ أن الحيـاة خُسْرانٌ طويلٌ؟ أفكر الآن في موتي لأني أفكر دائماً في بقائي، وقد يبدو الأمر متناقضاً لكنه ليس كذلك. أن نموتَ لا يعني أبداً أنْ لا نبقى، وفي الوقت نفسـه، فـإن أن نبقــى لا يعني أبداً أن نكــون موجــودين. كلنـا موجودون لبرهــة من الوقت طالت أم قَصُرَت، لكن قلــةً منا يبقون إلى الأبد. وطوال حياتي التي مضــت جاهدتُ كي أبقى، ولم أحفل بأن أكونَ

موجودة. ما قيمة وهج شمعةٍ ستنطفئ بعد قليل، أمام لمعان نجم مازال يبرق منذ ملايين الأعوام؟ ما قيمة كل ما أنجزته في حياتي إن خَبَتْ ناره لأنني رحلتُ عنها، ولم أعد أنفخ عليها كي تتقد؛ فيتذكرني الآخرون بين وقت وآخر؟ ما قيمة أن أكون موجودة في مقابل أن أكون باقية؟

(15)

إنني أكبر، وأنت معي. ظننتُ كثيراً أنني سأقطع هذا الدرب وحيدة، وأعددتُ نفسي لذلك؛ لكنكَ جئتَ في اللحظة التي ناسبتْ مجيئك. لم أنتظركَ، ولم تتوقـعني، وقد تقاطع دربانا في اللحظة التي قُـدِّر لهـما أن يتقاطعا فيها فأفضيـا إلى دربٍ واحدٍ، نمـضي فيه معاً. أحياناً، عندما أفكر في الأمر بطريقتي التي تعرفها، أشعر بغرابةٍ تجاه فكـرة أنني: تزوجتـك، لغرابتي وليس لغرابة الفكرة نفسـها ، ولا لغرابتـك؛ لكـن الفكرة تغـدو مقبولة ومبهجة عندمـا ألتفتُ فألمح وجهـك. أفكـر في أنك تنظر إليَّ فترى ما أنا عليه، فلا تجهد نفسـك كـي تغـيره، ولا تجهد نفسـك كذلك كـي تحتمل غرابـة طبـاعي،

ومخاوفي، وقلقي، وميلي إلى تعقيد الحياة، أنت تتقبلها فحسب، وقد تبسـطها أمامي في مرات، كي تجعلني أدرك أنك تدرك، وأن كل ما عـليَّ أن أفعلـه هو أن أثق بك، بي، بنا معـاً أكثر مما أفعل. إنني أكبر، وأنـت معـي، أقـول لك بنزق: "أشـعر بالفراغ"، فتقـول بهدوء: "اكتبي"؛ فأحسُّ أنْ ليس هناك ما هو أكثر أماناً من تعرفني إلى هذا الحد، وأن تكون معي.

(16)

إننــي أكبر، وأنأى عن كثير من ذكريـات صباي، أراها وهي تشــحب ببـطءٍ كأنْ لم تكــن؛ غير أن بعضهــا مازال حــاضراً كما لو حــدثَ أمــسِ، ربما لأنَّه أشــدَ حفــراً في الأعــماق من أن يُنســى! في الخامســة عشرة – مثــلاً – كتبتُ مذكــراتٍ مزقتُها فيــما بعد، لأنني أردتُ أن أوثــقَ ما عرفتُه عن نفسي وعن الحياة خلال تلك الأعوام فــحســب. وعدتُ نفسي بأن أبقيها حتــى أبلغ الثلاثين، كي أقرأها فأرى ما الذي بقي، وما الذي ســحقه مرور الوقت. لكنني مزقتها قبــل أن أبلغ ثلاثينــي، وقبل أن أعيَ أني أمزق – إذ أمزق – أشــياء منــي. وها أنــذي على أبواب الأربعين، أكتب كــي أعيَ، وأعي كي

أكتب، فهل ستنجو أوراقي هذه؟ أم أن التلف سيطولها هي أيضاً؟ يا الله! ما أبعد الشُّقة بين الخامسة عشرة والأربعين! ما أبعد ما كنتُه حينها عمّا أنا عليه الآن، لكنها كلُّها حياتي إن كتبتُ وعيي بها أو لم أكتبه. لقد عشتها ولا مفر لي من أن أعيشها، وكل ما أحاول أن أفعله هو أن أجعلها أقل خفةً كي لا تُنسى.

(17)

إنني أكبر، وأزداد تشبثاً بأنْ لا أعرف ما قد تخبئه لي الحياة. لا أسعى إلى ذلك، ولا أظنني سأفعل. في أحد شوارع القاهرة فررتُ مـن بصارة اعترضتنـي كي تقرأ لي - كما قالـت - بختي. لاحقتني وهي تقول: "وشِـك بيتكلم، سـيبيني أقرأ لك البخت"، فابتعدت عنها وأنا أردد: "ما أبغى". أفزع من فكرة أن أعرفَ ما قد يحدث لي، وكلما فكرتُ في الأمر بدت لي معرفةً مبهظةً: أن أحيا أمراً ما مرتين فرحاً كان أم أسىً. وأنا أحبُّ أن أمضي في الدَّرب فاستكشف ما قد يُفضي إليه، لا أن أتوقى شـيئاً فيه، أو أنتظر وصولي إليه. ما جدوى أن أعرفَ ما لن يمكنني تغييره، وفوق ذلك فإن معرفته قد تغيرني؟

أفهـم توقَ الإنسـان إلى أن يعرف، لكني في المقابـل أفهم خوفي من أن أعـرف قبل الأوان؛ لذا أختار أن أخافَ عـلى أن تُنهكني معرفةُ كيف أن حياتي سـتتغير في لحظة ما. أجل سينهكني أن أعرف، وأن أنتظر أن يحدث ما عرفتُه، وأن يحدثَ، أو أنْ لا يحدث. يا للخسارة الفادحة! ألا يكفي أن نخسر دون أن نعرف؟

(18)

إنني أكبر، وأنغمسُ أكثر من ذي قبل في تأمل حياتي وكل الحيوات التي تقاطعتْ وتتقاطع معها. تدهشني فكرة تقاطع الحيوات والمصائر هذه. يدهشني أن يتقاطع معي أناس في كل مكان، في الشوارع، في الأسواق، في أمكنة العمل أو الدراسة، أو المستشفيات، أو المطارات، أو غيرها. وأفكر كثيراً في كيف أن كل هذه الحيوات تتقاطع بكل هذه الدقة، وهذا التقدير؟ وأتساءل: عندما أتقاطع مع أحدهم فهل يعني ذلك أن قدرَ أحدنا سببٌ في خلق قدرِ الآخر؟ وأي القدرينِ أسبق إن كان الأمر كذلك؟ أم أن الأقدار تتوازى في خلقها ثم تتقاطع في حدوثها؟ وأفكر في كيف أن

ملايـين الحيوات ظلت تتقاطع طوال آمـادٍ مضت، فيقود تقاطعها إلى أوضـاع جديـدة، فيـما تكتفي حيـوات أخرى بالعبور فحسـب مثلـما يحدث في صالة انتظار في مطـار ما، تتقاطع لأنه قد قدِّر لها أن تتقاطع، من قبل أن يُخلَق الخلق بـ: (50000) عامٍ! أحياناً أتساءل: كيف خطرتْ لله – جلَّ شأنه – فكرة: الحياة؟

(19)

إنني أكبر، بوعي مُمِض، يجعل من الحياة أحياناً جحيماً صغرى، لكنني لا أملك أن أتخلصَ منه، ولا أريد أن أحيا دونه، وقد مرَّ وقتٌ لم أدرِ فيه - لطول ما تعذبتُ - ما إذا كان وعيي نعمةً أم ابتلاءً. وقد كان وسيظلُّ - بالنسبة لي - أمراً ثقيلاً أن أعيَ حياتي، أنْ لا أجتاز أحداثها دون أن أتأملها، كي أفهم لِمَ كان أمرٌ، ولِمَ لم يكن آخر. وأحياناً، حين يكون الأمر عصياً على الفهم - وغالباً ما كان كذلك - أبتهل إلى الله ألا يرزأني بوعيي أكثر من هذا الرُّزء، وأبكي؛ لأني لا أملك غير أن أبكي أو أتبلد، وقد عجزتُ عن أن أتبلد في مواجهة تهتك الحياة، عجزتُ عن أرغب عن فهمها

وفهم اضطرابي إزاءها، عجزتُ عن أن لا أشعر في مراتٍ كثيرة بأنني في المكان والزمان الخاطئين؛ ليس لأنني أفضل أو أحسن، بل لأن طباعي وأفكاري وطريقتي في أن أحيا حياتي لا تناسب هذا المكان، ولا هذه اللحظة العصية من الزمان. إنني أكبر، وأحسد كلَّ من نجا من شَرَكِ الوعي الحاد.

(20)

إنني أكبر، وأغدو أكثر هشاشة من قبل. ويؤذيني أحياناً أن أشعر أنها هشاشة مَنْ يعي ويعرف أكثر مما يجب، لا هشاشة مَنْ لا يجرؤ، وإن كان يمكن مداواة الأخيرة، أو حتى تجاوزها، فإنَّ الأولى تغدو - مع الوقت - ملمحاً مثل بقية الملامح، يشيخُ لكنَّه لا يمّحي؛ وأنا ألمح هشاشتي طوال الوقت، وأحاول أن أتآلف مع فكرة أنها هنا، وأن عليَّ أن أداريها كما لو كانت عطباً. أَليستِ الهشاشة عطباً في الروح؟ عطبٌ لا يُصلحه أن نفهمه؛ لأن فهم الهشاشة لا يجعلها أخفَّ وطأة، ولا أن ندرأ أسبابه؛ لأن أسبابه مما لا يمكن درؤه، ولا أن نتجاهله؛ لأن أحداً لا يستطيع

أن يتجاهـل لـون عينيه أو شـكل يديه أو ندبة على سـاقه. إنها هنا، ورغـم أنها تفضي إلى الخفة، فإن الهشاشـة ثقيلـة ومُلزمة، ويمكن أن تجعـل من حدثٍ عابرٍ تجربةً غير سـارةٍ. إنهـا هنا، ولن يحدثَ ما يجعلها غير موجودة مهما أغمضتُ عيني، وتمنيتُ ذلك؛ لأنَّ كل ما يحـدث حولي - كما يبدو - يجعلها تتأكد يومـاً بعد آخر. إنني أكبر، وهشاشتي كذلك تكبر معي.

(21)

إنني أكبر، وأميل إلى الوحدة أكثر من ذي قبل، وأفكر دائماً في أنني كنتُ سأكون من أهل الصَّوامع والبِيَع، لو أن الزمان تقدم بي. الوحدة لا تؤذيني، ومعها يمكن أن أعيَ هشاشتي فلا أحزن، لأني سأكون غير مضطرة لتبريرها، وغير مضطرة للاعتذار عنها، وغير مضطرة حتى للارتباك إزاء رد فعل الآخرين تجاهها. في حياتي اليومية يمكن لي أن أكون مع الناس لبعض الوقت، لكن الذي يُنهك روحي أن أكون مع الناس طوال الوقت، أو لفترات طويلة. طول الحضور يجعل المرء - بالنسبة لي - باهتاً مثل قماشة تُرِكَتْ تحت الشَّمس طويلاً، فغابت بهجة ألوانها، وغاب حتى وقع ملمسها

الحقيقـي، ولم تعد أكثر من شيءٍ كان، ومـا أكثر الناس التي كانت!

وأنا أحبُّ أن لا أكون سـهلاً مفتوحاً، وأحبُّ كثيراً أن أكون الغابة التـي يزورها المرء بين وقتٍ وآخـر، فيجد في كل مرة جديداً. تجربة الحياة كلها - كما أرى - تكمن في التآلف مع الوحدة، لأننا نخوض حيواتنا فُرادى مذ نولد وحتى نموت، وأعظم تجاربنا تجارب تتبدى فيها الوحدة بأوضح صورها مهما شـاركنا فيها الآخرون: الولادة، والمرض، والخوف، والفرح، والألم، والحمل، و... الموت. الوحدة إذن، مآلنا الأخير.

(22)

إنني أكبر، وأنفِقُ جُلَّ وقتي كي أفهم الزمن، فلا أفـهمه؛ لذا أشـعر أنه عدوي الخفي الذي يضرب دون أن يكون باستطاعتي دَرْءُ ضرباتـه عني. لا أعـرف كيف يمـضي؟ ولِمَ يمضي؟ وكيف أننـا نحيا فيـه ونعجز عن أن ندركه كما ينبغي له؟ أهو شيء يمرُّنا ونمـرُّه، أم حالٌ تعترينـا؟ وإذا مضى فإلى أين يمضي؟ أين تذهب كل أعوامنا التي تغـادرنا؟ أين تذهب؟ ولِمَ لا يمكن أن نحتفظ بها في مكان ما كثيابنا وأشـيائنا العتيقة؟ إنني أكبر، ويوجعني أن أتسـاءل طوال الوقـت: أين تذهب الأيام الجميلـة؟ كيف تبدأ؟ وكيـف تجـفُّ كأنْ لم تَغْـنَ بالأمـس؟ وكيـف يمضُّـني الحنين إذ يعيـدني إليها ولا يعيدها إليَّ؟ أحيانـاً أمدُّ يدي- في غمرة انفعالي

- فأتحسسني كي أصدق أني مازلتُ هنا، حتى وإن ذهبت أيامي الجميلة، وأفكر في أن أياماً جميلةً أخرى ستأتي - ربما - وستذهب دوني، وأنَّها ستظلُّ دائماً شيئاً قريباً بقدر ما هو عصيٌ على إدراكي مهما حاولتُ؛ فأتألم.

(23)

إننـي أكبر، و تكبر معـي صداقاتي كذلك. يكـبر بعضها كي يبقـى، فيـما يكـبر قليلٌ منها كـي يذبل؛ لكـن بمَ أشـعر حينما تذبل صداقـةٌ قديمةٌ أمام عينـيّ، دون أن يكون لديَّ مـا أفعله أو أقوله؟ بـمَ أشـعر حينـما أراهـا - الصداقة - وهـي تتحلل يومـاً بعد يوم، ليس بسـبب سوء أحدٍ أو شيءٍ، بل لأنّها لم تعد تملك ما يبقيها لأمدٍ أطـول؟ لقد كَـبُرتْ إلى الحدِّ الذي ينبغي معـه أن تموت، ونَضَجتْ إلى الحـدِّ الذي بدأتْ تتغضن معه، واسـتوت على عرشـها إلى الحدِّ الـذي لم يعـد يمكنهـا معه أن تنحنـي - ولو قليلاً - كـي تمرَّ عليها الأيـام المليئـة بانشـغالاتي، ومللي، وشـكّي، وخيبـاتي. أحياناً تبدو

لعينـيّ عندمـا أتأملها كمَلـكٍ مخـلوعٍ، يجلس كل يوم على كرسـيه، ولا يفكر في شيء سـوى أنه الملك، ولا يرى شـيئاً سوى أنه الملك؛ رغـم أن الحيـاة - كل الحيـاة - قـد تغـيرت، ولم يعـد يحكمها - في داخـلي على الأقـل - ملوكٌ أو حفاةٌ؛ لم يعد يحكمها سـوى الشـكّ المتواصـل، والرغبة الممضة - التي لا يفهمهـا إلا قلة - بالنأي عن كل شيء والاكتفاء بالصَّمـت.

(24)

إننـي أكـبر، وأحاول قـدر ما يسـعني أن أُدجِن مخـاوفي التي عجـزتُ عـن أن أبـرأ منهـا. مخـاوفي الصغـيرة والعظيمـة، مخاوفي المضحكـة أحياناً، وغـير المفهومة، وربما غير المـبررة أحياناً أخرى، مثـل: أن أخاف من الأدوية التـي لا يصفها طبيب، وأن أخاف من الأمكنة المرتفعة غير المسـيجة، وأن أخاف من السَّـلالم الكهربائية، وأن أخاف من أن تسرع بي سيارةٌ، وأن أخاف من الأمكنة المفتوحة الخاليـة، وأن أخاف من اللحظـة التي تهبط فيها طائرة تقلني وتلك التـي تصعد فيهـا، وأن أخاف من حـدة وعيي التي قـد تقودني إلى الجنون، وأن أخاف من أن أفكر في كل احتمالات الحياة التي تفوتني

كل يوم بسـبب غفلتي أو جهلي أو كسـلي، وأن أخاف من أن... أن تموتَ عني بغتةً، قبل أن أشبعَ، وقبل أن تكتبَ عني - كما أخبرتني - ولو صفحة واحدة، وقبل أن ألتفتَ مرة أخيرة إلى حياتي - كل حياتي التي مضتْ - وأقول دون تشـفٍ أو حقدٍ، وأنا أحيا سعادتي معك: إني اكتشـفتُ - متأخرة مثلما يحدث دائماً - أن السَّـعادة هي ما كانت تنقصني، وأني أسـتحقها، أسـتحقها، أسـتحقها، حتى لو نغصها الخوف والوعي.

(25)

إنني أكبر، وأتخيل أحياناً أنَّ حياتي - كل حياتي - مشهدٌ قصيرٌ في فيلمٍ طويلٍ، تعرضه صالة عرضٍ شبه خالية، ويشاهده إنسانٌ وحيدٌ مرَّة ثُمَّ يمضي عنه. مشهدٌ يبدأ وينتهي في دقائق، لكنه يبقى في الذهن طويلاً، لأن قيمته ليست في امتداده؛ بل فيما يقترحه، وفي المعنى الذي يحمله. مشهدٌ لا حوار فيه؛ لأن الكلمات تَقْصُر عن أن تحكيه، أو لأنها - بصورة ما - تفسده. مشهدٌ أعيد تصويره مراتٍ ومراتٍ قبل أن يقول المخرج: (cut) للمرة الأخيرة، موقناً أنْ ليس ثَمَّ أداءٌ - مهما برع صاحبه - يمكن أن يقدم المشهد كما يراه في ذهنه. مشهد مثل: مشهد إديث بياف (Edith Piaf) في فيلم:

(La Môme)، وهـي طفلـة، تجلـس إلى طاولـة وتـأكل من طبقٍ أمامها، فيما يدخل عليها أبوها، ثُمَّ يستل دميةً من تحت سترته؛ كي يقدمها لها باسماً. دمية منهكة لطفلةٍ أشد إنهاكاً تبتسم لخيرٍ ضـئيلٍ، خـيرٍ غير متوقـعٍ، خيرٍ غير مشروطٍ، يحدث مـرةً واحدة؛ فيبقى إلى الأبد.

(26)

إنني أكبر، وأدافعُ الشـكَّ الممضَّ أكثر من ذي قبل. أحياناً - عندما أتأمل حياتي - تبدو لي شكّاً يتناسل إثر شكٍّ، أمَّا اليقين فيها فيبـدو لي قليـلاً متضائلاً، ولا أخـاف من شيءٍ قدر خـوفي من يومٍ أفيقُ فيه وقد ابتلعني الشـكُّ؛ سـتكون خسارتي فادحة حينئذٍ، ولن يعصمنـي من الله شيء. يوجعني شـكّي في أشـياء كثيرة من حولي، يوجعنـي شـكّي في فكـرة الحياة نفسـها، وجدواها، غـير أنَّ ما مِنْ شكٍّ يُهيِّض روحي مثل شكّي في أن أكون قد اخترتُ حقاً، في العماء الأول، وقبل أن أُخلَق بآلاف الأعوام، اخترتُ هذا الرُّزءَ: أن أكون إنسـاناً! كيف لمن أضناه الوعي بقـدر ما أضناني أن يختار أن يُوجَد،

وأن يحمل أمانة؟ كيف لمن وعى فداحة الخسارة أن يختارها؟ وما الشيء الذي أدركتُه وقتها فجعل الخيار سهلاً، ثُمَّ لَمَّا خُلِقتُ غابَ عن إدراكي وخلَّفَ لي شكي وحيرتي؟ أخاف كثيراً من فكرة أني اخترتُ وأنا أعي رعبي من شكّي، ورعبي من الخزي إن ابتلعني الشكُّ في مرَّة، وابتلع معي يَقِينَانِ أبتهلُ إلى الله دائماً أنْ لا يحرمني منهما: يقيني بعدله، ويقيني برحمته. إن ضاعا مني، فإن حياتي كلها ستؤول إلى خراب عظيم ومخزٍ لن يُقِيله شيء، ولن يغفره شيء.

(27)

إننــي أكبر، وأفكر في أننــي بشرٌ مثلــومٌ، وأني في حياتي أحبُّ الأشــياء والنَّــاس المثلومــة؛ وكلُّ الأشــياءِ والنَّــاسِ - مــا خــلا الله ســبحانه - مثلومــةٌ. أفكــر كذلك في أننــي كما يقــول درويش: «لن أكــون كــما أريد. ولن أحــب الأرض أكثــر». وأعي دائماً أن أشــياء كثــيرة فاتتنــي، وســتفوتني، وأني أقــل مما أريــد بســبب فواتها عليَّ، ويشــعرني ذلــك بالحزن أحياناً، ورغم ذلك فــإني أواصل؛ لأنني لا أســتطيع غــير أن أواصل بــما أملكه، وبــما أنتظر أن أبلغــه، بقصور حواسي، بأَثْلامِ وعيي، بجسدي الذي هو - بالنسبة لوعيي - ليس أكثــر من فخٍ منصوب لي طــوال الوقت، وقد يعوقنــي عن بلوغ ما

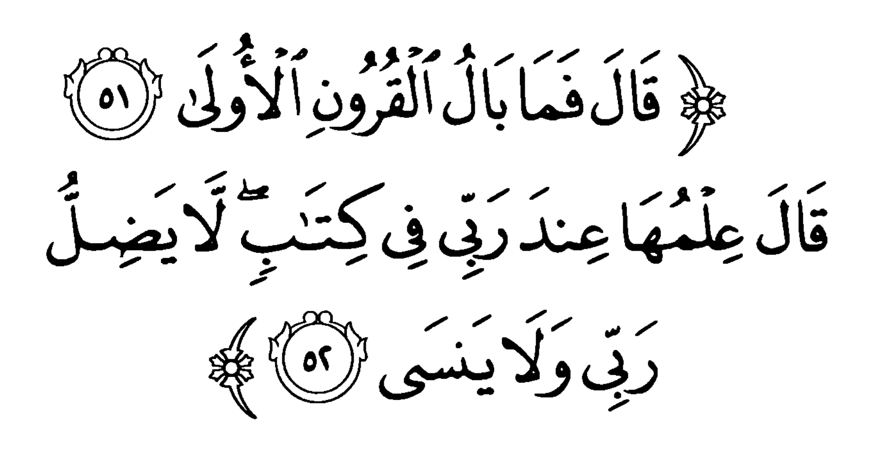
أحلـم بـه في مراتٍ. تؤرقني فكـرة أني «محدودة» فيما الحياة واسـعة وغامضـة وتنتظر من يغامر، تؤرقنـي كذلك فكرة أن ما أملكه أقل دائـماً مما يتطلبه الأمر، وأن ما أريده عصيٌّ، ويتطلب أن أغادر الحال الإنسـانية التي أنا عليها؛ كي أبلغـه، وأفهم حينها كيف أن الحياة- كل الحيـاة كما أراها - كذبةٌ وقحةٌ وطوبيبيلةٌ، ورغم ذلك نتشـبث بها ونتمنى أن تدوم إلى الأبد.

(28)

إننــي أكــبر، وهذه هــي حياتي: طويلــة وثقيلة وغــير مكتملة لأني لم أمــت بعــد، لكنهــا ناضجــة. ربما كانتْ سـيئة أحيانـاً، لكن ذلـك لا يعنــي أبداً أنني كنتُ سـيئة. كنتُ أحاول، وقد فشـلـتُ في مـراتٍ وسأفشـــل، ونجحــتُ في مراتٍ وســأنجح، ولعـل أكثر ما أفكـر فيـه الآن أنني دافعــتُ الأذى، لكنني حاولــت جاهدة أنْ لا أُدافعه بـالأذى. أتأمل وجهي، أتأمل عيني خاصةً؛ فأشــعر بوخزةٍ مــن عــرفَ مــا لا ينبغي له أن يعرفــه، لكن لا مناص مــن أن أمضي ســواءً عرفتُ أم لم أعرف. وهذه الكتابة ليســتْ في مديحِ ما مضى، بـل لفهم معناه، ولن يفهم معناه ســواي. لــن يفهمه أحدٌ كما فهمته وســأفهمه أنــا، لأن أحداً لم يعشــه كما عشــته بكل ما فيـه من إنجاز

وفشـل وفرح وأسـى وعفو وغضـب. أربعـون! لم أبلـغها، لكني أوشـك على ذلـك، وأنـا أردد «ما أطولهـا حياتي!». نحـن لا نبذل مجهـوداً كي نبلغ عمراً ما، بل نبلغه لأننا نبلغه، وهذا هو ما يحدث؛ لكننا مسؤولون عن أن نبلغه بما يليق به، أو على الأقل بذخيرة تليق بـه، فهل أملك من الذخيرة ما يكفي؟ هل شـبعتُ من حياتي؟ هل فهمتُ تعقيدها وحساسيتي إزاء هذا التعقيد؟ إنني أكبر، لكن هل نضجتُ بالقدر الذي يستحقه عمري؟ لا أدري، كلُّ ما أعرفه الآن أنها حياتي، وذاك ما حدث.

إبريل 2009


﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ
رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾

[طه: 51–52]


Twitter: @ketab_n

إنني أكبر، وليس بيدي أنْ لا أفعل. كلُّ ما بيدي وأنا أكبر هو أن أعيَ كيف ينحتُني هذا الكِبَر. ما الذي يأخذه مني؟ وما الذي يُضْفِيه عليَّ؟ وأين سأجد نفسي عندما ينتهي الدَّرب، وترفّ الملائكة بأجنحتها من حولي، ويصير ما أعيه خارج الكلمات وأكبر منها؟ وكم سأخسر حينها أنا التي آمنتُ أن الحياة خُسْرانٌ طويلٌ؟



@darathar

#في_معنى_أن_أكبر



تصميم الغلاف: غدير الراشد